

تحقيقات «الأفكار»
كتب صبحي منذر ياغي

قصة العشائر
من الألف الى الياء!

العشائر اللبنانية ... مجتمعٌ له قوانينه وتقاليده... و«الثأر» من أبرز عاداته... و«غسل العار» وفق منطق العشيرة يكون بأخذ «الثار»... !

عرّف عدد من علماء الاجتماع العشيرة بـ«جماعة من الافراد ينتسبون الى عصب واحد، اي يتحدرون من أب واحد وتربطهم عصبية واحدة تتمثل بولائهم وانتمائهم الى العشيرة». وشكلت منطقة بعلبك ـ الهرمل الحيز الاساسي لانتشار العشائر والعائلات الكبيرة. وكانت كلمة <عشائر> فيما مضى، توحي فور سماعها، بعادات وتقاليد عربية اصيلة تعتبر من ابرز ما تتميز به هذه العشائر كالشجاعة، والكرم، وتكريم الضيف، واغاثة الملهوف... وهذا التحقيق يلقي الضوء الى حد ما على النواحي التاريخية للعشائر وتطورات واقعها الاجتماعي والانمائي والديموغرافي.

العصبية هي الرباط الاجتماعي الاساسي لقيام العشيرة واستمرارها، لان هذه العصبية هي بمنزلة الاعتراف الضمني والعلني بالانتماء الى هوية ثقافية واجتماعية عشائرية، انها إحساس بالارتباط بمجموعة من الناس لها علاقات ومصالح، وحقوق وواجبات، وان اساس نشوء هذا الشعور بالانتماء هو صلة الدم والقربى، ولولا هذه الصلة لانعدمت الصلات العشائرية، وقامت العلاقات الانسانية على أسس غير دموية.
فالعشيرة ملزمة بالدفاع عن افرادها، وأفراد العشيرة ملزمون بالدفاع عن عشيرتهم اذا أصابها ضيم أو تهددتها مهلكة، انه نظام تكافل تضامني بين العشيرة ككل اجتماعي وبين افرادها كأجزاء من هذا الكل.

أصول العشائر

المتابعة الميدانية للحضور العشائري في لبنان تظهر ان منطقة بعلبك ـ الهرمل هي المكان الابرز لانتشار هذه العشائر التي يعتبر ياسين شمص ان اصول معظمها تعود لبطون وافخاذ قبائل عربية كانت تسكن في منطقة اليمن، دفعتها العوامل الطبيعية والصراعات القبلية الى الهجرة نحو منطقة النخيلية في السعودية، ثم نحو العراق، ومنه الى حلب وصولاً الى مناطق جبيل وكسروان في لبنان.
وحسب الدكتور حبيب محفوظ فإن آل حمادة على سبيل المثال ينتمون على الارجح الى قبيلة مذحج العربية وانهم اتوا من اليمن بعد خراب سد مأرب واستقروا في العراق ثم في جبة المنيطرة ووادي علمات، الى ان حطوا رحالهم في أواخر القرن الثامن عشر في بلاد بعلبك والهرمل والقيرانية.

حملات المماليك

وتؤكد الدراسات التاريخية الحملات العسكرية التي قام بها المماليك ضد الشيعة في كسروان (1292 ـ 1305) والتي عرفت بالحملات الكسروانية وكانت نتيجتها قتل وتشريد الالاف من الشيعة بموجب فتاوى صادرة عن ابن تيمية، دفعت بهذه العشائر للنزوح نحو سهل البقاع فسكنت في منطقة الهرمل، فيما توجهت عشائر اخرى نحو جبل عامل في الجنوب، ومنها نحو دمشق.
ويرى الدكتور محمد علي مكي في كتابه «لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني> أن <النتيجة الكبرى لتفريغ كسروان من سكانها الشيعة ان سجلت بداية الهجرة المارونية اليه بتشجيع من اصحاب الاقطاع الكسرواني وعلى رأسهم العائلات التركمانية من بني عساف...».

عشائر بعلبك ـ الهرمل

في لبنان عشيرتان مارونية في الريف الماروني الشمالي، وشيعية في ريف الشريط الشرقي من السلسلة الغربية، وبالأخص في منطقة الجرد الهرملي. وقد تشكلت كل واحدة من هاتين العشيرتين بشكلها الخاص بمساهمة شروط سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة لكل واحدة منهما. وتنقسم عشائر الهرمل الشيعية الى قسمين: شمصية (شمص ـ علوه، دندش ـ علام ـ عواد ـ ناصر الدين ـ علاء الدين)، وزعيترية (زعيتر ـ جعفر ـ نون ـ أمهز ـ مقداد ـ الحاج حسن ـ شريف ـ رباح). وتنتمي هذه العشائر بقسميها الى عصبية عامة وموسعة تعرف بالعشائر الحمادية. والحمادية هي صيغة سياسية توحد الأفخاذ الشمصية والزعيترية حول جب عبد الملك من عشيرة آل حمادة صاحبة الموقع السلطوي (المشيخة)، ولذا حملت الأفخاذ العصبية هذه اسم «الحمادية».
والمساحة الجغرافية التي تنتشر فيها العشائر، أي الجرد الهرملي، تقع في الطرف الشمالي من سهل البقاع وفي غربي مدينة الهرمل الواقعة على تلة فوق نهر العاصي. ويمتد الجرد الهرملي على السلسلة الغربية محاذياً جنوباً بلدة عيناتا المارونية، ومنبسطاً نحو الشمال حتى الحدود السورية. ويفصله عن اقضية وقرى الشمال اللبناني خط طويل من القمم ينتشر على طول حدوده الشمالية الجنوبية. ومن الشرق يتوقف عند نهر العاصي.

شمصي وزعيتري

أما بالنسبة لتوزع افخاذ العشائر الهرملية الشيعية على البلدات والقرى في الجرد الهرملي، فهي على الشكل الآتي: حمادة في الهرمل، ودندش في العين والهرمل، وآل شمص يتوزعون بين الهرمل والخرايب وشعث وبوداي، وآل جعفر في الدار الواسعة والشراونة وجرد الهرمل، وآل ناصر الدين في الهرمل والشربين وزغرين وبريصا. أما آل علاوه وعلام وعواد وعلاء الدين فيتوزعون بين مدينة الهرمل ووادي الرطل ووادي التركمان وزبود. هذا التوزيع السكاني لا يلحظ افراد العشائر الساكنين في اماكن أخرى بأعداد قليلة، إنما يركز على سكن الكتلة الكبرى من العشيرة في سكنها الصيفي والشتوي.
أما العصبيات العشائرية فقد انتشرت في الجرد الغربي التابع ادارياً لمركز القضاء الهرمل. وانقسمت الى محورين: الأول شمصي ويضم آل شمص، وعلّوه، وناصر الدين، ودندش وعلاّم، والثاني زعيتري ويشتمل على زعيتر، جعفر، المقداد، الحاج حسن وأمهز.
وانتشر قسم آخر من العائلات ـ العشائر (المارونية) في جبال لبنان الغربية، في شليفا ـ دير الأحمر ـ عيناتا ـ نبحا ـ القدام وغيرها من القرى التي توزعت في مساحات جردية واسعة. ومن أبرز تلك العائلات: حبشي ـ كيروز ـ طوق ـ فخري ـ جعجع ـ ندّاف.

رجال بلباس عربي

ويقول فادي ريحان: «قد يتخيّل المرء حين يسمع كلمة عشيرة ... رجالاً بلباس عربي تقليدي يحملون البنادق ويبحثون عمن يطلقون عليه النار بسبب الصورة المسبقة والمقولبة التي رسمت عن العشائر في مخيلة العامة من اللبنانيين. صورة تتعلق بالعنف والنهب اللذين تمارسهما العشائر في سياق تطورها ومد نفوذها وسيطرتها على المناطق التي توجد فيها، أو بسبب ارتباط هذه الصورة

بعشائر الدول العربية المجاورة في الاردن والعراق وشبه الجزيرة العربية التي تقدمها الافلام السينمائية والمرويات على انها تعتمد على الغزو في سبيل عيشها، والقتال في سبيل السيطرة. ولكن في الحقيقة فإن العشائر اللبنانية في الجرد الهرملي لم تكن على هذه الصورة سابقا، أي في بدايات القرن الماضي، ولا هي كذلك الآن في بدايات الالفية الثالثة. وهذه العشائر التي نزحت الى الجرد الهرملي، لم تكن تعيش في الجرود منذ نشوئها عشائر وافخاذاً وجبوباً، بل لجأت اليها بعد هجرتها من مناطق جبيل والبترون التي كانت تخضع لسيطرة المشيخة الحمادية وفقاً للنظام المقاطعجي».

العشائر والاستقلال وخزان «أمل»

لقد كان لعشائر بعلبك دورها الاول في معارك الاستقلال اللبناني عبر التاريخ وخاضوا معظمها، وسجل التاريخ ملاحم بطولية لابناء العشائر في مواجهة الجيشين التركي والفرنسي مثل رشيد سلطانة دندش، ابو علي ملحم قاسم، زين مرعي جعفر (بطل معركة وادي فيسان 1926).
لقد خاضت العشائر غمار الحياة السياسية منذ عهد الانتداب الفرنسي حتى اليوم، فكان الرئيس صبري حمادة احد اركانها الذي تربع زمناً طويلاً في سدة رئاسة مجلس النواب، وكان للعشائر نوابها : فضل الله حمادة، فضل الله دندش، محمد دعاس زعيتر، نايف امهز، علي حمد جعفر، يحيى شمص، وأخيراً لا آخراً غازي زعيتر...
كما انتمى عدد كبير من ابناء العشائر الى الاحزاب السياسية العلمانية والوطنية، وشكل هؤلاء الخزان الحقيقي لحركة المحرومين «أمل» التي اطلقها الامام موسى الصدر عام 1974 وعمل جاهدا للقضاء على عادة «الثار» السائدة لدى هذه العشائر والسير بها نحو مجتمع أكثر انسنة وتقدما وتطوراً. وساهم الامام موسى الصدر في دفع عدد كبير من زعماء العشائر ومخاتير المنطقة وفاعلياتها الى التوقيع على عريضة «ميثاق شرف» يعلنون فيه التزامهم بالاقلاع عن هذه العادة المشينة. وكان للامام الصدر دوره الكبير في تأمين المصالحات بين عشائر وعائلات كانت بينها شلالات من الدم، واشتهر النائب الراحل الشيخ قبلان عيسى الخوري بدور شيخ الصلح بين العشائر المتخاصمة فلم يكن لكلمته رد.

والعهد الشهابي

وكان العهد الشهابي بالنسبة للعشائر بمثابة العهد الذهبي، اذ ان الرئيس فؤاد شهاب استطاع استقطاب هذه العشائر الى جانب الدولة من خلال تأمين مستلزمات العيش الكريم لها والسعي لادخال عدد من ابنائها الى الوظائف الحكومية. فكان بطرس عبد الساتر مستشار العشائر الذي عينته الدولة الشهابية لهذه الغاية.
ويرى الزميل فيدل سبيتي في هذا المجال «ان الخطة «الشهابية» كانت تهدف من دعم العشيرة وزعيمها الى الحاقها في ما بعد. وكانت تدعم الزعيم بأن تصرف له الأموال وتنظّم له المشاريع <التنموية> لإفادته الشخصية، ومنحه صلاحيات واسعة في فض مشاكل أفراد عشيرته مع الدولة، وأطلقت يده في منطقة نفوذه. كبر حجم الزعيم العشائري المحلي وبات يملك سلطة مدعومة من الشهابية تقرّب افراد عشيرته منه، وبات ذا جاه ومال، فتخلى عن حياة العشيرة القديمة الملأى بالعوز والفقر والتنقل والعنف وهجر الجرد الى القرى والبلدات، ووجد ان السكن «المدني» الجديد يوافق حجمه ويناسبه، فيما كان لانتقاله هذا أثره على عشيرته في وحدتها المكانية (في الجرد الهرملي)، وفي سلطتها التي تمارسها في هذا الجرد>.
واضاف: «ولجأت الشهابية في سبيل التخفيف من قوة العشيرة وتمدينها الى التنمية كوسيلة لتفكيك العشائر وإبعادها عن عصبيتها الاصلية، فشقّت طريقاً عسكرياً اخترق الجرد الهرملي من الجنوب الى الشمال، بدءاً من دير الأحمر الى عيناتا مروراً بجباب الحمر ومرجحين وقلعة عروبة وصولاً الى فنيدق ومشمش في عكار. هذا الاختراق والتطويق الأمني كانا في حقيقتهما «التنموية» دخولاً سياسياً ينشد إفراغ المنطقة الجردية من عناصر قوتها، اذ ان وحدتها الإسلامية المكوّنة من شيعة الجرد الهرملي وسنّة الشمال والمتأثرة بالتيار القومي، كانت تشكّل خطراً جدياً على النظام الشهابي.
وفي السبيل نفسه الى ضرب وحدة العشائر بواسطة ضرب زعاماتها اي سلطتها الموحدة لجأت الشهابية بداية الستينات الى توليد زعامات سياسية جديدة في العشيرة».

العشيرة والحداثة

والشكل العصبي العشائري لم يتفكك بالكامل في لبنان، ولكن يمكن القول انه يعيش حالة انتقال من شكله التاريخي الى شكل آخر لم يتبلور بعد، وبحسب دكتور علم الاجتماع فؤاد خليل مؤلف كتاب <العشيرة دولة في المجتمع المحلي> فإن <سبب فقدان الشكل التاريخي للعشيرة بعض مرتكزات تكونه (الحمى، العنف، السلطة الجامعة) يعود الى دخول العشيرة في اطار الحداثة والتعليم والانخراط في سوق العمل والهجرة والانخراط في الاحزاب السياسية والطائفية من جهة، واشتداد العصبية في اوقات الازمات وخفوتها في ازمان السلم»، هذه الاسباب جعلت العشيرة تقف في موقف غير نهائي لا يعيدها الى ما كانت عليه ولا يضعها في حال اجتماعية وثقافية واقتصادية جديدة وثابتة.
وما زالت العشائر اللبنانية تتمتع بقدر من السلطة في مجتمعاتها التي تنتشر فيها جغرافياً، وهي مترتبة على نوع من العصبية المتبقية في داخلها، والقائمة على استماع افراد العشائر لكلمة الوجيه واحترامها، وهو الذي يمثلها في المناسبات على اختلافها، ويقوم لحل خلافاتها مع العشائر الاخرى ويدفع ديات القتلى.

صفات عشائرية

اتصفت العشائر بعادات اصيلة تجسدت في الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف واكرام الضيف وحمايته، فضلاً عن نجدة العشائر الاخرى في ساعات الضيق والمهلكة، الا ان عادة «الثأر» تعتبر من ابرز صفات هذه العشائر غير المستحبة، وان تراجعت هذه العادة نوعاً ما أو تغيرت قوانينها في بعض الأحيان.
فعادة الثأر موروثة منذ العصور الجاهلية، وتكمن في الغرائز والسلوكيات، منذ ان كانت العرب تعتقد ان طائراً يسمى «الهامة» يخرج من رأس القتيل ويصيح: «اسقوني اسقوني..»، فيثأرون من القاتل، ويسقون من دمائه طائر «الهامة».
هذه العادة المتوارثة عن العهود الجاهلية ما زالت متأصلة في نطاق العشائر في مناطق بعلبك ـ الهرمل، وعكار، وزغرتا وبشري... وهي تعتبر في مفاهيمها ان «غسل العار يكون بأخذ الثار».
والثأر وحش تنوعت ضحاياه فكان منها المحامي، والطبيب، والصحافي، والمدرس ورجل الدين... ولا يميز بين كبير وصغير، حتى بين مذنب وبريء، وجريمتهم انهم من كبار قومهم وعائلتهم.

السلطة: دور مفقود

وعادة الثأر المتوارثة كرستها ضغوط اجتماعية، تربط اعتبار صاحب الثأر ومكانته ومهابته بإقدامه على اخذ ثأره من القاتل، الذي يسمى وفق المفاهيم العشائرية والعائلية بـ«الغريم»، ومن تخلى عن هذا الدور يصنف في بيئته جباناً متخاذلاً وبعيداً عن الشرف والرجولة. وغني عن القول ان للسلطات دوراً رئيسياً في الحد من هذا المرض الاجتماعي، لكنها لم تؤده في الشكل المطلوب، اذ تغاضت عن جرائم ولم تنزل احكاماً عادلة في حق مرتكبيها لأسباب وظروف شتى. في المقابل اندفعت العشائر في تفعيل قوانينها واحكامها.

العصبية العشائرية

وختاماً، يعتبر الدكتور عثمان دلول ان الدولة لم تتمكن دائماً في بعلبك من اداء واجبها في الاقتصاص من القتلة، لا بل قصرت أحياناً في القيام بهذا الواجب الاساسي وكانت النتيجة إبقاء واجب الاقتصاص من القاتل على مسؤولية ذوي القتيل، وقد يكون هذا التقصير أحد أسباب استمرار هذه الظاهرة المقيتة... وان نسبة كبيرة من عمليات الاخذ بالثأر تتم بضغوط اجتماعية، وتهدف الى تكريس الاعتبار الاجتماعي لمن يأخذ بالثأر... فاذا تهاونت احدى العائلات في بعض الارياف اللبنانية في الاقتصاص من المعتدين عليها، ولم ترد بالثأر منهم تفقد مكانتها واعتبارها وتصبح معرضة للمهانة والسخرية...